## الفصل التاسع والخمسون

## ذكر اعتدال جو مصر وبدع ومحاسن شعبها قدر المستطاع

إن ماء أم الدنيا مصر وهى شوق الملوك من ماء النيل، وليس بها نهر آخر، وقد أسهبنا فى وصفه وإحصاء محامده فيما سبق. وجوها معتدل لطيف إلى حد جدّ بعيد، فلا يصاب أهل مصر بالحمى. سيما وقد ذكرنا آنفا أن جو القلعة الداخلية يشرح الصدور، وتنتشر بها الحدائق والرياض والأحواض والشادروانات، ويتردد فيها تغريد البلابل مما يبهج النفوس وهذا ما لا وجود له فى القلعة العليا. إلا أن جوها طيب فإذا ما مرض جنوب المدينة صعدوا به إلى القلعة العليا (أو إلى أعلى القلعة).

والقلعة العليا مصحة للمدينة، والأبنية فى الجهة القبلية للمدينة متلاصقة، لذا فطرقها ضيقة مظلمة ولذلك فعلى سطح كل بيت «عبَّار هوائى» لإنفاذ الهواء إلى داخل البيت ومنافذ الهواء هذه من اختراع ابن سينا على ما يقال. وقد صنع ابن سينا هذه المنافذ بعلم السميا وكان يبيع كلا منهما بدينار من ذهب على قدر استطاعة كل أحد، وكان كل منهم يضع هذا العبار فوق سطح بيته ليدخل منه الهواء فيتنسمه أهالى القاهرة.

ولهذا السبب فإن جو الجهة القبلية للمدينة غير متقلب فى اليوم الواحد تهب عشر رياح.

**- ريح (تياب):**

ولكن ريح (تياب) تهب من جهة (  )[1] وتسمى (  )[2] فى بلاد الترك.

إنها فى مصر راحة للأرواح، وهذه الرياح لا تبرد جرار وقلل الماء فى مصر.

**- ريح المليس:**

وتسمى فى بلاد الترك «لودس» وهى وإن كانت حارة التأثير إلا أنها تجعل الماء كأنه قطعة من ثلج.

**- ريح «مزكب»:**

وهى رياح مثيرة للرمال والأتربة، تملأ القاهرة غبارا وترفع ثياب جميع الناس، ومن شدتها تأتى بجميع سفن الحجاج من جدة إلى مصر مما يعود بالخير على البلاد.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

والجهات الخارجية للقاهرة طيبة النسيم، وإذا ما هبت رياح «بويراز» ورياح «لودوس» خمسة أشهر جاءت السفن من بلاد الترك مما يعود بالرخاء على مصر.

كما أن الرياح التى تسمى «بويراز» تأتى بالحجاج من السويس، وتحمل الحجيج إلى جدة وينبع مما يعود بالنفع والخير على مكة والمدينة. وإذا ما هبت الريح المعروفة بلودوس خمسة اشهر وهى أشهر الشتاء جاءت سفن الحجاج والتوابل من جدة وينبع إلى السويس مما يعود بالخير والرخاء على مصر، وتمضى هذه الرياح ثانية بالسفن إلى بلاد الترك. ولهاتين الريحين عظيم الفائدة لمصر وشعبها.

وفى وسط القاهرة يطيب الجو، كما أن أجواء جبل المقطم أى الجوشى ومصيف قايتباى وسهل العادلية وسبيل علام والمطرية وبركة الحاج غاية فى اعتدالها.

أما الجهات القبلية للمدينة فتوجد البرك وعلى حوافها صور سلاطين وملوك السلف، وجوها كذلك يشرح الصدر. ولكن داخل المدينة وكالات وربوع وهى منازل من خمسة طوابق أو أكثر، وفى أيام هبوب «رياح الخماسين» والعياذ بالله فإن لون وجوه الفلاحين، من ألم البَّق والبراغيث والقمل والبعوض والذباب والرائحة الكريهة، تصبح وكأنها وجوه أناس مصابين بالصرع، والسبب فى ذلك هو أنه لا وجود فى مصر لقنوات الصرف، بل آبار وفى أيام هبوب الخماسين على الخصوص تكسح المراحيض وهذه القنوات فتفوح الروائح الكريهة والعفنة، إلا أنهم يخبرون أهالى الأحياء بذلك ليهرب الأشخاص ذوو الحساسية بأطفالهم ممن هم فى سن خمسة أو ستة أشهر إلى حى قايتباى أو داخل القلعة أو غير ذلك من القرى.

وبسبب هذه الروائح الكريهة فى تلك الأحياء يتنفخ أعلى مخ الطفل وينفتح فيه ثقب يخرج منه مخ الطفل وقد أحمض كالبوزة فيموت الطفل.

وجملة القول أن رياح الخماسين تلك ضارة للغاية، وسميت هذه الرياح بهذا الاسم لأن الله ابتلى بها بنى إسرائيل بخمس مصائب فى خسمة أسابيع.

وبعد أن تفشى الطاعون وعم القحط وانتشرت الأفاعى والعقبان طيلة خمسين يومًا ثم دفع هذا البلاء بفضل دعاء موسى ـ عليه السلام ـ. وعندما تحين الأسابيع الخمسة تلك يسارع أهل مصر إلى توزيع الصدقات، فى حين أن الدنيا تنهدم فوق رءوس

المسنين وتستولى عليهم الكآبة، أمـا الباشاوات فيسرون سرورا لا مزيد عليه إذْ إن بعض القرى تصبح محلولة فتكون من نصيبهم.

وفى جو الخماسين السيء لا يلامس ذوو الحساسية نساءهم، ففى تلك الأيام تضعف أجسامهم وتقل قوة نـطفتهم. أما إذا عيل صبرهم ولامسوهن ولـدت لهم أطفالا عمى مجذومين وذوى نمو غير مكتمل وعرج.

وهـذه الأيـام المنحوسـة فى مصر توافق أيام الربيع فى بلاد الترك، بيد أنها فى مصر أيام الجحيم. ولا يهب نسيم الصبا فى العـريش نحو القاهرة ولا يهب منها كذلك ريح سام.

وإذا ما هبط مصـر شخص من بلد آخر طابت لـه مستقرا ومقاما وتعـود على جوها وصـح جـسمـه، فبركـة دعاء يوسف الصديـق ـ عليه السـلام ـ يصبح الغريـب موفور العافية عظيم الثراء إلا أنه لحكمة لا يعلمها إلا المولى ـ سبحانه وتعالى ـ فإن أعين أبنـاء الغربـاء الـذين يتوافـدون على مـصـر تصـاب بالرمـد وكأنها عـين ابن الـعبد وهذا ما يتحتم حدوثه. يا لها من حكمة عجيبة. وبأمر الله عندما يولد أطفالهم يولدون ضعاف البصر.

والكثرة الـكاثرة من أهل مصر يـضعون ملح النطـرون فى طعامهم، لـذا يصابون بتورم الخصـية وهنا تبدو نـسـاؤهم وكأنـها حوامل. وتـتورم أرجل فلاحيهـم كأنها القرب.

يحكى علماء مصر أنه عندما أرسـل يزيد رأس الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى دمشق، ثم أرسله إلى عامله على مصر والـذى كان يدين له بالولاء، فوضعه فى جامع السلطان حسن بميدان الروملى، وجعل اليزيديون ـ الذين كانوا ينتشرون فى مصر آنئذ ـ يركلـون الرأس الشريـف بأرجلهم، وكـان كل من ركل رأس الحسـين برجلـه تورمت وأصيبت وكأنها القربة ومن فى مصـر الآن من ذوى الأرجل المتورمة كالقربة من سلالة هؤلاء اليزيديين.

وهذا ما رواه علماء مصر.

**ـ تفشى مرض الجذام بين المصريين:**

وفضلا عن تورم أرجل هؤلاء تورمت وجوههم وأجسامهم، وأغلب فقرائهم وغيرهم مصابون «بالجذام» فى وجوههم وعيونهم وأجسامهم. ويسمى هذا المرض فى بلاد الترك «بالجرب الأفرنجى» وهو مرض متفش فى مصر ولا يسبب أى حرج لمن يصاب به، ويخالط فلاحو مصر المصابين به ممن تآكلت أطرافهم قائلين لهم: أهذا جذام. حتى إنهم يتناولون معهم طعامهم ولا يخافون قط من هذا المرض لأنه أكثر الأمراض انتشارا فى مصر إذ إنه لا وجود فيها لمستعمرات لهؤلاء المجذومين على حين أنها توجد فى سائر البلدان الأخرى حتى لا يقيمون فى داخل المدينة. ويتصدق أهالى الولايات بأموال زكاتهم على هؤلاء المرضى وذلك امتثالا لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، أما فى مصر فلا يجدون من يتصدق عليهم بحبة قمح.

**ـ سبب تفشى الجذام فى مصر:**

والسبب فى انتشار الجذام فى مصر هو إباحة الدعارة فيها، فبغاياهم يسرن فى الطرقات أسرابا أسرابا.

والمصريون قوم سمر البشرة، متوسطو الطول، أما فلاحو القرى فمنهم أشخاص ضخام الجثة وكأنهم دابة الأرض. ولسانهم عربى إلا أن كلامهم ليس فى بلاغة فلاحى مكة والمدينة وبغداد ودمشق، ولأنهم قوم فرعون الجبابرة فهم يحرفون الكلام فبدلا من أن يقول أحدهم للآخر «تعال اقعد» يقول «تعقعد» وذلك من قبيل تخفيف الكلام، وهم يسمون الخبز «رغيفا» و «شيلواقا» ويسمون الماء «موى»، ويقولون «دى» بدلا من هذا. ولهم غير ذلك من ألفاظ مهملة محرفة.

ومن فصيح أشعارهم هذه الأبيات:

ياسين ياسين يا غزال ياسين ∴ أنت الورد وأنت النسرين

بالله قل من هجرانك وارحم أنا ∴ الغريب المسكين

يا روحى يا قلبى يا بعدى ∴ يا قمرا يحيى لعندنا المحبوبين

إلا أنهم على المذهب الشافعى القويم.

## أسماء فلاحى مصر

ولفلاحى مصر أسماء منها: جاد الله ، حيا الله، عبد الخالق، عبد الصمد، عبد الغفور، حمى الله، هاشم، طه، ياسين، مرزوق، حمد الله، حمد، شرابى، طاهر، عبد الحى.

وهذه الأسماء المذكورة أسماء العوام، أما أسماء الخواص فسوف نذكرها فى حينها.

**ـ طوائف أهل القاهرة:**

وينقسم أهل القاهرة إلى طوائف منهم طائفة «التجار» وهم قوم ثراة، والكثرة الكاثرة من أهلها من الحضر، وهم يعيشون فى رغد وسعة، ومنهم طائفة «الحرفيين» وهؤلاء يعيشون فى كفاف. وطائفة منهم هى «الترك» يشكلون طائفة الجند وأغلبهم من مماليك من الأبخاز والجراكسة والجورجيين والروس وزنوج العرب وهم جند أتراك غاية فى بهاء ثيابهم واكتمال أسلحتهم.

وطبقا لما جاء فى قانون السلطان سليم لم يكن يسمح بتجنيد «مستوى القدم» من فلاحى مصر.

ويرتدى كل ثيابا قدر ما يستطيع ويلبسون الصوف الحورانى والسراويل الحمر، أما الحرفيون إذا ما ارتدى أحدهم هذه الثياب وقع تحت طائلة العقاب. والصناع يرتدون فاخر الثياب وأنواع الحرير إلا أنهم لا يرتدون السراويل وصيفا وشتاء يتجولون عراة السيقان وكم من مئات الآلاف من فلاحى مصر يمشون عراة.

وجميع أهل القاهرة لا يلبسون السراويل، أما علماؤها فيلبسون العباءة.

## ذكر نساء مصر

وجميع نساء القاهرة لا يلبسون السراويل، أما النساء التركيات هن اللاتى يلبسنها ويلبسن على شعورهن قلانس مخيطة بالذهب والفضة وعليها ريشات، ويلبسن الأطواق والقرطة والخلخال والمعاضد والمناطق المرصعة، ويلبسن القباء الحريرى المزركش وفوقه قباء من قماش مموج أبيض وإزار أسود. ونساء الأعيان يلبسن القلانس التى تسمى «سلامية» وفى أقدامهن الخفاف الصفر والنعال المزركشة الخفيفة ويركبن

حمرهـــن ويتجـولـن فـــى الطرقات فيـنضح منـهن شذا المسـك والعنبـر فى الأسواق السلطانية.

وفى كل بلاد الدنيا ثمة حسان لا نظير لهـن فى حسنهن وجمالهن، ومن عجب أنه ليس بين نساء القـاهرة حسان، وبعض الأثرياء يتزوجون من بنات قـبائل بهجة وحنادى والحضرى، ومنهـم من يستقدم العذارى الحسان من بنات الترك والتـى تساوى الواحدة منهن خزانـة مصرية، فهن حسناوات فاتـنات ينطبق عليهن قـوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، كما أن الغلمان الصباح يأتون من خارج مصر، أما ما فيها منهم فهم لا يعمرون طويلاً. وإذا ولدت إحدى الجميلات فى مصر رمدت - عينها، وللحضر بنات رشيقات القوام كأنهن أمهاتنا.

## أسماء نساء مصر

اسماؤهـن: مريم، حواء، عذراء، صفـاء، ورقاء، وردة، امهان، كلثـوم، رابعة، رقيـة، زينب، ستيتة، زلـيخا، زالحة، صـالحة، دمريـة، عجيـبة، شناس، طـاهرة، وسامعة، ماهية وأسماء أخرى مستطرفة وحسبنا هذا القدر.

وللجوارى الحـبشيات أسماء تـثير العجب منـها: خسيسة، قسـيسة، نفيسـة، فتنة، أشمينة، شمسيـة، شمونة، ريحانة، هدية، وردية، حمراء، قمراء، عـمبرية، جميلة، وأسماء كثيرة من هذا القبيل إذا ذكرناها ألقى علينا اللوم.

أما خارج القاهرة فى الـقرى والبليدات فثمة حسان صعيديـات وبدويات لهن عيون الظباء ووجوه منيرة يقصر اللسان عن وصف جمالهن.

**- طقوس ومراسم زواج الفلاحين فى مصر -**

للفلاحين تقاليد مرعية توارثوها عن أسلافهم، فإذا ما شاء واحد منهم أن يزوج ابنته مسلما فهذه الزيجة تتم وفق أصول وطقوس مرعية.

اتفق أن كانت هناك ليلة زفاف فاجتمع ما يقرب من ألفى شخص من أهل العروسين وأقاربهم وعقب وليمة عظيمة طعموا فيـها الملوخية والقلقاس والجبن خرج فتى من أحد جوانب الساحة وعلى رأسه شال الإنكشارية وفـى وسطه منطقة وفى إحدى يديه سكين



obeikandi.com

وفى يده الأخرى فأس وأخذ يصيح ويضرب الحاضرين فجرح كثير منهم وحطم بعض ما لديهم وكان هذا الشاب وكأنه ثمل وكان إذا ما تكلم أو أقدم على عمل شىء يقوم بعض الحضور ويقبلونه ويجلسونه فى ركن، ولعله كان ابنا لأحد المجرمين، ثم قام ثانية وصاح قائلا: «أين سيدنا» وبحث عمن يتزوج ليقتله فتقدم إليه من يتقدمون بالرجاء وقالوا له: «ما فى بالى يا عينى».

وقبله من فى المجلس وأغمدوا سكاكينهم ومضى.

وعندما ذهبت العروس الجميلة تلك لتلتقى بزوجها جلست فى ركن بين مظاهر الأبهة وأقبلت بعض صديقاتها قائلات: «الحمد لله فقد جاء معشوقك» لقد غضب وبحث عنك فلم يجدك، ولابد أنه قد بسط لسانه بالسوء وعندئذ وقفت العروس هى الأخرى وقالت: عجبا إن معشوقى إذا ما أراد أن يقتلنى فأى ذنب كان منى، قال إنه سيقدم عشرة أكياس صداقا واطلع الحضور على ما أنفق منذ شهر أو أكثر من دفتر فى يده. وكل منهم كان يتباهى بما قدم إلى ابنته من صداق.

وأمسك من يريد الزواج بسكين معقوف ومشى غاضبا بين جموع الحاضرين وقال إنه أنفق مالاً كثيرا وإذا ما وجد من يحبها فسوف يقتلها، ثم ظهرت العروس من أحد أطراف تلك الساحة ففر طالب الزواج هذا واختفى فى ركن ولم يعد له من أثر وجاءت العروس فى زى آخر وقد لبست ثوبا أحمر فخرج بعض الناس لاستقبالها وقالت العروس:

إن بينى وبين فلان عداء وشاء أن يقتلنى وقد قدم إليه أبى وأمى هذا القدر من أكياس الجوهر والأوانى الذهبية وعرضت ذلك على جميع الحضور فعرفوا من ذلك أن فلانا قدم كل ذلك لهذه العذراء، وكانت الفتاة إذا ما سكتت لقنها أقاربها، ثم أخرجت العروس سكينها ومضت وجاء من يريد الزواج فى ثوب آخر وزعم أنه قدم مالا جما لوالديها وعمتها وخالتها وهدايا أخرى كثيرة، ثم جاءت العروس فى سروالها الأحمر والخنجر معلق فى خصرها وكأنها جندى فأمسكت الخنجر وبحثت عنه ثم جلست فى خيلاء وتكلمت كلاما تقدم فيه النصح ومضت، ثم قدم طالب الزواج وفى إحدى يديه

عصا وفى الأخرى سبحة وهز رأسه ووحد الله كثيرا ثم مضى وحاصل الكلام أنه فى تلك الليلة الطويلة حتى مطلع الفجر غير العروسان ثيابهما عشر مرات ومضيا وقدما واشتجر بينهما الخلاف غير مرة وفى النهاية انحنت العروس على ركبة من تريده زوجا وتبادلا القبلات ثم رفعت مئات المشاعل وقرعت الطبول كما أضيئت القناديل فى تلك الساحة وغمرت البهجة الجميع وارتفعت الأصوات من كل جانب بإنشاد القصائد والتغنى بالمواويل وفى هذه الأثناء ظهرت المشاكل من جهة أخرى. مضت العروس على صهوة جواد مرصع السرج وهى فى قباء من السمور وهى فى كامل زينتها وفوق رأسها تاج فرعونى عليه ثلاث ريشات متفرعة وهى مكشوفة الوجه وهى تلوح بالسلام إلى من اصطفوا على جانبيها ووقف الفلاحون جميعا وردوا عليها السلام وعلى جانبى العروس اصطف مئات من النساء والصبيان يحملون الشموع ويصيحون قائلين: «الله ينصر السلطان» ومضوا بالعروس وفى يديها منديل وعلى رأسها التاج الفرعونى ويقف جميع الفلاحين إذا ما لوحت العروس لهم بمنديلها.

## وصف تاج العروس الفرعونى

قلنسوة من جلد الجمل المدبوغ فى حجم القدر وكل زاوية من زواياه الثمانية مخيطة بالذهب وفى سالف الزمان كان بين زواياه مرصعًا بالدر والآن مواضع هذا الدر ظاهرة، وداخله مكسو بمخمل صفيق وهو وردى اللون وحتى قمته حجر سيلانى فى حجم التفاحة وأطرافه مزدانة بالعقيق والحجر اليمنى، إنه تاج عجيب.

نزلت العروس عن جوادها فى تلك الساحة ونادت من يطلب الزواج منها قائلة: أين من يطلب صاحبة المقام العالى. فجاء وكر وفر أمامها فحملت العروس الخنجر المعقوف وأمسكت بلحيته وجذبتها إلى أسفل وعندما همت بذبحه جاء من أصلح ذات بينهما وأصلحوا بينهما مع الاتفاق أن يبنى الزوج لها بيتا أو ينشىء لها بستانا أو يبتاع لها عدة جوار أو يقدم لها عدة أكياس وشهد جميع الحضور على ذلك وعندما قرأت الفاتحة خطف الزوج زوجته من بين الحاضرين وفى التو خلع التاج عن رأسها فى حجرة ثم افتضها، فسال الدم منها، وأطْلَعَ دمها على والديها وقومها فعرضت العروس شكواها

ببعض كلمات وهذه فخر لوالديها على أن بنتهما ظلت عفيفة لم يلمسها أحد من قبل قط، ففى العرب وخصوصا لدى فلاحى قبيلة الحضر يصعب وجود فتاة عذراء، فعمر قلب والديها وأقاربها بالطمأنينة ورفعوا عن رأسها التاج الفرعونى، كما أطلع أبوها وأمها هذا الدم على الحاضرين ودعوا الزوج إليهم وسألوه لماذا سفك كل هذا الدم فأنكر أن يكون فعل ذلك فقالت العروس: انظروا إلى ملابسه تجدونها ملطخة بدماء بكارتى، وعندئذ نظر جميع الحضور فى ثياب الزوج فرأوا آثار الدماء عليها، فتعلقت العروس بعضو زوجها وتعلق الأب والأم بوسط الزوج وطالبوه بأن يدفع دية ذلك الدم المسفوك، ثم أصلح المصلحون بينهم وقدم الزوج هداياه إلى أبيها وأمها دية لهذا الدم المراق، وعندما طالبا بالمزيد حضر والد الزوج وأمه وأقرباؤه واحتدم الخلاف بينهم، وقالوا سلبتم ابننا كل ما يملك دون حق وشهد على ذلك الحاضرون وتدخل من أصلح ذات بينهم وقدمت الهدايا إلى والدى العروسين وأقربائهم ليلزما الصمت وتم الصلح بينهم وتراضوا جميعا وجلسوا فى مكان واحد وعمت البهجة والسرور نفوسهم حتى مطلع الفجر وأطلقوا البنادق وغنى المطربون وعزف العازفون بما أدخل البهجة حتى على روح فرعون الخبيثة وكان الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث عن الجماع.

هذه هى عادات الفلاحين الحضريين وطقوس الزواج عندهم.

إلا أنهم لا يسمحون بتزويج بناتهم من الغرباء ويحافظون على ذلك التاج الفرعونى.

## أوصاف الاحتفال بختان البنات

يعتاد الفلاحون على الاحتفال بختان بناتهم، فيقيمون حفلا بهيجا عند ختانهن وكأنه عرس عظيم، وتركب آلاف النساء الحمر فى موكب عظيم ويمضون بالبنت إلى الحمام ثم يمضين بها ثانية إلى بيتها وفى تلك الليلة تحضر النساء الخافضات وعندما يقطعون بَظْرَ البنت يقام حفل وكأنه العرس.

وقد بقى هذا الختان من عهد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فعندما كان فى مكة أرسل إليه الملك طوطيس ملك مصر جارية وهى أمنا هاجر. فغارت منها أمنا سارة فقطعت الشحمة الزائدة فى فرج أمنا هاجر، ولكن لحكمة لا يعلمها إلا الله أصبح جماعها لذيذا. ومنذ ذلك الزمان وعادة ختان البنات عند العرب وهى مأخوذة عن أمنا هاجر وقد ولد إسماعيل عليه السلام لهاجر.

## وصف الاحتفال بختان الصبيان

إنها أجمل العادات فى مصر لأن الناس جميعًا من فقراء وأغنياء إذا ما ختنوا أولادهم اتباعا لسنة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعاون بعضهم بعضا فيجمعون عشرة أو خمسة عشر أو عشرين طفلا ليذهبوا بهم إلى الحمام فى جوقة موسيقية وقد حملوا عليهم الذهب والفضة وأركبوهم الخيل وعلى رءوسهم جميعًا ريشات سلطانية يتقدمه جنائب عليها السروج المرصعة ويتقدمه كذلك مسنو الحى والأحياء المجاورة وقد حملوا السلاح وازَّيَّنُوا ويمضون صفا صفا وهم يتبادلون الفكاهات، كما يمضى بينهم من يحملون القناديل والأعلام ثم يركب الجراح جواده يتقدمه صندوق به جميع آلات الختان يحملها رجل على رأسه ويمضى مساعد الجراح وعليهم مناشف من الحرير سيرا على الأقدام، وقد ركب الصبيان الذين سيختنون العجول والحمر والخيل ويستعرض المضحكون المضحكات ويطوفون الأسواق بهؤلاء الأطفال على هذا النحو على نغمات الموسيقى العسكرية والأغنياء والفقراء على تلك الحال. ويدوم هذا الاحتفال ثلاثة أيام بلياليها فى صخب وجلبة وتقام الولائم وفى كل ليلة فى مدينة القاهرة تعم البهجة فى مائة مكان وتقام الاحتفالات وتتلى الموالد، وتزدان شوارع القاهرة وأزقتها بآلاف القناديل وتوزع الأطعمة وينادى المنادون من قبل الصوباشى طوال ثلاثة أيام بأن تظل المقاهى وما حولها من حوانيت الأطعمة والأشربة مفتوحة حتى مطلع الفجر، ويستمر البيع والشراء.

وخيرا يفعل الناس علما بحديث رسول الله ﷺ وهو: «أعلنوا الزفاف ولو بالدفاف»[1].

فما فى مصر من هذه الأبهة لا وجود له فى ديار أخرى.

## فضائل أهل القاهرة

إذا ما مرض أحد فى القاهرة قدم عليه جميع أهل الحى لزيارته وتقديم الهدايا إليه، وإذا توفاه الله أخطروا أمين بيت المال وجهزوه وكفنوه ووقف جميع أهل الحى عند بابه وغسلوه وهم يسبحون ويوحدون، ويضعونه فى النعش ويزينونه بماء الورد والريحان ويقوم جميع العلماء والصلحاء والمشايخ بالتوحيد والتسبيح ويدخلون نعشه فى الجامع الأزهر ويصلى عليه جمع غفير ثم يمضون به إلى القرافة أو إلى الموضع الذى يسمى «زاوية الجنازة» أى سبيل المؤمنين بميدان الروملى وهناك يصلون عليه ويذهبون به إلى مقابر الإمام الشافعى أو مقبرة من المقابر الاثنتى عشرة. وأفضل هذه المقابر مقابر أخى يوسف فى سفح جبل الجوشى أو مقبرة الشيخ عقبة. أما الفلاحون فيدفنون بالقرب من مصر العتيقة فى القرافة العتيقة. ولما كان فرعون صوباشيا أحاط هذه القرافة بسور وكان يحصل ضريبة على كل ميت يأتون به لدفنه فيها.

ويمضى الفلاحون فى جنائزهم رافعين الأعلام، ويتبعهم نساؤهم وهن على الحمر وفى أيديهن مناديل يلوحن بها وقد كشفن عن وجوههن ونشرن شعورهن نائحات باكيات.

ونعوش هؤلاء الفلاحين مسنمة كنعوش النصارى يحملونها على سلالم متحركة إلا أنهم يمعنون فى تزيينها وبذلك يكرمون موتاهم ويقيمون عليهم صلاة الجنازة على الأصول الشرعية.

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب النكاح، باب ما جاء فى إعلان النكاح حديث رقم ١٠٨٩، وابن ماجة فيه حديث ( ١٨٩٥) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٢٩٠ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولفظة: «أظهروا النكاح واضربوا عليه بالغربال».

## فضيلة أخرى لأهل القاهرة

ولأهل القاهرة عادة أخرى مستطرفة ففى ليلة جمعة يمضى مئات الآلاف من النساء والرجال إلى الاثنتى عشرة قرافة فتصبح وكأنها بحر من الناس وهناك من يختمون القرآن الكريم ويتلون سورة «يس»، ويوزعون الصدقات على الفقراء.

وجميع الأضرحة مبنية بالحجر وتحتها مخازن يسمى الواحد منها «فسقية» ويسمى الواحد من هذه الأضرحة «بيت الحزن» ولها نوع خاص من الأبواب وهى موصدة بالتراب، تفتح عند الدفن. وتتسع الفسقية الواحدة لدفن مائة أو مائتين إلا أن الجثث لا تغطى بالتراب وإنما توضع فى أكفانها بعضها يتعفن وبعضها يتيبس ثم يسدون الباب بالجصّ الخرسانى. ففى مصر كثير من لصوص المقابر الذين يسرقون الأكفان. حتى إنه فى عهد جان بولاد زاده حسين باشا وضع بعض لصوص المقابر على الخازوق فى ميدان الرومللى وخنقوا بالأكفان التى سرقوها وذلك لتطهير الدنيا من شرورهم.

وعلى كل قبر يحفرون تاريخا بماء الذهب يصففون قبابا مكشوفة ويثرون فوقها الحب ويضعون الماء للطيور. ويضعون كذلك على قمة كل قبر الآس والريحان وفى تلك الأيام تمضى النساء إلى القرافات دون إذن من أزواجهن، كما أنه لا يحق لزوج أن يسأل زوجته إلى أين أنت ذاهبة، إذ إن زواجهما انعقد شريطة ذلك.

وفى غير ذلك لا يستطيع زوج فى القاهرة أن يسأل امرأته أين كنت، إذ إن عزيز مصر وقع تحت سطوة «زليخا» ومنذ ذلك الحين والرجال فى مصر مغلوبون على أمرهم تحت تسلط زوجاتهم. وهذا هو عرف مصر وما جرى فيها مجرى العادة.

وما من قوم يحبون موتاهم ويخلصون لهم إلى هذا الحد إلا فى مصر.

## مصدر رزق فقراء القاهرة

يستطيع المصريون أن يفيدو من كل ما فى الوجود ويصنعونه للكسب منه.

**ـ حرفة مستطرفة ـ**

وفى ليلة مولد الإمام الحسين فى شهر المحرم بمدينة القاهرة يجتمع آلاف من يهود القاهرة كل ثلاثة منهم فى موضع وفى أيديهم زنابيل كبيرة يحرقون أنواعا من البخور ويبيعونها وأثناء ذلك يرفعون أصواتهم الرخيمة بالغناء، وثمة نوع من البخور يبيعونه لا مثيل له. ويقال إن هذه العادة بقيت فى القاهرة منذ نقل رأس الحسين إلى مصر وعهد السيدة نفيسة.

**ـ متسولو القاهرة:**

ولكن المتسولين الذين لا عمل لهم فكثير فى القاهرة، ففى القرافات المذكورة ليلة الجمعة وليلة الإثنين لا يسلم أحد من هؤلاء المتسولين الجبابرة. وبعضهم يقترب من أحد الأعيان وبعد أن يلقى السلام عليه يتملقه بمعسول الكلام إلى أن يصل معه إلى بابه.

وهنا وبأسلوب لا يخلو من القحة والوقاحة يقول له المتسول: «أعطنى يا سيدى نفقة أهل بيتى»، أما إذا كان المار فقيرا فلا يسمح له الشحاذون بالسير فى السوق.

## حادثة

اتفق لى ذات يوم أن أردت قضاء حاجتى فدخلت مرحاض جامع السلطان حسن وأغلقت على بابى ولا شعور لى بأحد وبينما كنت أقضى حاجتى فتح على الباب متسول ومد إلى يده قائلا: «أعطنى صدقتى يا سيدى» وعلى الرغم من أننى لم أكن قد تطهرت بعد سارعت إلى إعطائه فقال لى المتسول: «زادك الله نجاسة» وانصرف؛ بعد ذلك تطهرت وخرجت وتوضأت وصليت فى جامع السلطان حسن ثم التقيت بصديق حميم وقصصت عليه ما وقع لى. فقال لى ذلك الصديق: بالله أمجنون أنت؟ أصلحك الله، أيلطخ أحد يده بالنجاسة هكذا فقلت له: إذا ما فتح أحد باب المرحاض هكذا وعورتك مكشوفة فذلك أمر الله، أكان يطلب نقودا؟ فقال هذا الصديق: أكان هذا الرجل أصفر اللحية، متوسط القامة، مسطح الجبهة، مستدير الوجه، تترى السحنة يشع من وجهه النور؟. قلت: نعم، إنه تترى السحنة، أصفر اللحية. فقال لى أيها الظالم إنه قطب من أقطاب صوفية القاهرة وقد ظهر لك فى بيت الخلاء ليختبرك فلما نظرت إليه نظرة ازدراء واحتقار ومسحت يدك بالنجاسة، ولذلك دعا الله عليك بأن يزيدك نجاسة. ولما قال لى هذا شرد عقلى وطاش صوابى وبعد مرور شهرين على تلك الواقعة أصبت بمرض «الزحار» وتحققت دعوته على بقوله: «زادك الله نجاسة». ولكنى ولله الحمد تصدقت فشفانى الله من هذا المرض.

فكم من فقراء مصر من المغمورين من لهم عظيم المنزلة عند الله.

لا تحسبن أن كل غابة خالية ∴ فربما استتر نمر فيها

## وصف الملاميين

فى القاهرة آلاف من حاسرى الرءوس من المجاذيب، منهم من يأخذ النقود ومنهم من لا يأخذ، ومنهم من يأخذ الخبز ومن لا يأخذ، ومنهم مَنْ لا يتكلم البتة ويمضى صامتا ولكن إذا تَلاَ القرآن الكريم أذاب أكباد من سمعه، وبعضهم يأخذ الكسوة وكل منهم له أطوار وحركات خاصة، وبعضهم يعتم بعمامة من الصوف وكأنها وعاء الماء المغربى التى لا يستطيع شاب أن يحملها فهى عمائم تزن الواحدة منها ثمانين أو تسعين أو مائة أوقية. ومنهم من يتخذ عمامة من ليف النخيل وهى كذلك فى حجم قبة الحمام إلا أنها خفيفة الوزن ويسمون من يلبسها «أبا الليف»، ومنهم من يتجول عاريا تمامًا كمن ولدته أمه.

وهؤلاء الدراويش لا يحصون كثرة كما أن الفقراء والمجاذيب والملاميون كثير لا يقعون تحت حصر، وهم إذا ما دخلوا الحمام تستروا بالمناشف وإذا ما خرجوا مشوا عراة بين الناس. وثمة حديث قدسى ورد فى شأن هؤلاء يقول عز من قائل: «أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى». أى إنه لا يجوز التعرض لهم، لأنهم اختاروا الفقر والفاقة ولا علم لأحد بحالهم إلا الله، ويقول صلى الله عليه وسلم: «الفقر فخرى». لذا فهم يرددون قولهم:

تالله إنا لنفخر بالفقر ∴ لذلك نمضى فى هيئة الفقراء

إلا أن معدميهم كثير لا حَبَّةَ لهم ولا جُبَّة.

## المجاذيب الإلهيون

ومن أعظم هؤلاء الشيخ «إسماعيل الصنافيرى» فى حى ( )[1] على طريق بولاق، وكم من كرامات له أظهرها. اتفق ذات مرة أن ذهبنا أنا وصهر أحمد باشا

(١) بياض فى الأصل.

الدفتردار وأحمد أغا المهردار والجاشنكير الرئيس وبعض الإخوان والأصدقاء واشترينا عدة أوقيات من الرمان لتقديمها هدية له وكان يسكن فى إحدى وكالات الحُمُر، ولما قدمناه عليه وجدناه يفترش التراب وعلى ظهره خرقة بيضاء تغطى أكمامه أما ما تحت عورته فكان عاريا. ومن بجانبه من الدراويش دعونا لنجلس بجانب الشيخ فجلسنا دون أن نقرأ عليه السلام وكل منا جذب انتباهه خاص الخاص من شأنه ووضعنا الرمان أمامه فتناول منها رمانة وهو راقد فى مكانه، ثم قدم إلى كل منا رمانة كما قدم إلى دراويشه، ولكن ما أتينابه كان تسع رمانات فى حين أنه وزع منها ثمانى عشرة رمانة. ثم أعطى كلا منا قطعة من حجر، كما أعطانا حجراً كبيراً وقال لنا: «أعطوا هذا الحجر للباشا وليعطيه إلى جنده وليرحل من مصر إلى بلاد الترك، وليأت من بغداد وليأت من بغداد» ولم يقل غير ذلك ولا دعا ولا أثنى، فنهضنا ومضينا إلى قصر الباشا، وقدمنا إليه الحجر المذكور وأخبرناه بما قاله الشيخ الصنافيرى. فقال الباشا: سبحان الله. ووضع الحجر بجانب كتبه، وفى اليوم التاسع عمَّت الثورة والتمرد، وأسقط الجند أحمد باشا وقدم عبد الرحمن باشا من بغداد، وأصبح واليا على مصر. ولعل قول الشيخ «ليأت من بغداد ليأت من بغداد» إشارة إلى مجئ عبد الرحمن باشا من بغداد. والله سبحانه وتعالى أعلم. فهذا ما وقع.

***



obeikandl.com